سمفونية الصحراء

للأستاذ عبد الحق فاضل

سئلت ذات مرة أن اكتب عن **اللغة العربية (غناها وخصائصها)** .

غناها يعنى واحدة من خصائصها ـــ وخصائصها تعنى مزاياها وعيوبها .

عيوب العربية

غير قليلة ، لا تحصى كثرة . منها صعوبة تعلمها بسبب كثرة مفرداتها . ومترادفاتها ، على المتعلم ، وقد روى أحمد بن فارس عن الثعالبى أن حمزة الاصبهانى قد جمع من أسماء الدواهى ما يزيد على اربعمئة ! ومع انه اورد ذلك فى معرض المباهاة بغزارة معين العربية ووفرة مفرداتها لم يسعه الا أن يكمل الرواية بقوله : « وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى » !

وجمع بعضهم للاسد خمسمئة اسم وللحية مئتين ! . .

وقد سأل الرشيد الاصمعي « عن شعر لابن حزام العُكلى ، فسره ، فقال : يا أصمعى ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا امير المؤمنين ، الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما ؟ »*.

كذلك رووا عن ابى العلاء المعرى أن احد السفهاء لم يعرفه فقال له : يا كلب ! فاجابه المعرى : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ! وبهذا الجواب عرف نفسه بأنه من العلماء ، وردَّ الشتم على الرجل، وشتمنا جميعا . . فمن منا يعرف للكلب ولو سبعة اسماء ؟

واسوأ من تعدد الالفاظ للمعنى الواحد تعدد المعانى للفظة الواحدة ـــ مما سبب الخلاف فى فهم الكثير من النصوص الجاهلية والاسلامية .

ثم هناك عدم اطراد المعانى فى استعمالات الكثير من صيغ التفاعل والتفعيل والتفعل والاستفعال ونحوها ، بالرغم من اطراد تصريفها .

وأدهى من ذلك عدم اطراد تصريف الافعال الثلاثية نفسها وهى العمود الفقرى للغة ـــ ما يتطلب تعلم تصريف كل فعل على حدة ، ماضيه ومضارعه ومصدره ، بل مصادره فى الكثير من الاحوال . . منها مثلا : كتب يكتب (كَتْباً وكتاباً وكِتبة ـــ بالكسر ـــ وكتابة) ، وثار يثور (ثَوْراً وثُؤُوراً وثورانا) .

هذا الى كثرة الشواذ والمستثنيات فى كل قاعدة تقريبا .

حتى الفاعل يدل على المفعول احيانا . الا تصدق ؟ الجسد الكاسى (يعنى المكسو) والانف الراغم (يعنى المرغوم) !

* المزهر 1 / 325 .

حتى المؤنث يدل على المذكر احيانا ، مثل نسّابة (بالتشديد ، اى نسّاب) وراوية (اى راوٍ) .. ومثل حمزة وطلحة وعنبسة : اسماء رجال !

حتى المذكر يستعمل للمؤنثة احيانا ، مثل : ظئر ومرضع وحامل .. ومثل حَذام ونَعم وزينب : اسماء نساء .

وهناك ما يطلق على الذكر والانثى كالخادم والفعيل كالجريح والفعول كالصبور .. والطفل يعنى الذكر والانثى والمفرد والجمع !

ومن المفرد الذى يدل على الجمع عدا ذلك : الركب والسفر والسَكْن (كلها زنة النصر) اى الركاب والمسافرون والسكان .

ثم لديك المفرد الذى لا جمع له من لفظه والجمع الذى لا مفرد له من لفظه ..

اما جموع التكسير فأىّ شىء نقول عنها ؟ السيف جمعوه على : سيوف واسياف وأَسْيُف (كأرؤس) ومَسْيَفَة (كمجزرة) .. والاسد جمعوه على : أُسُد (ككُتُب) وأُسْد (كسُكْر) وأُسود (كرؤوس) وآساد وآسُد (بضم السين) وأُسدان (كجُرذان) وماسدة .. والشيخ على : شيوخ (بالضم) وشيوخ (بالكسر) واشياخ ، وشِيخة (كصيغة) وشِيخَة (كديكة) وشيخان (كحيتان) ومَشْيُوخاء (بالفتح) ومشايخ ومَشِيخة (كمدينة) ومَشْيَخَة (كمهزلة) .

والاسماء التى لا تملك مثل هذه الثروة الطائلة من تعدد الجموع لا يمكن التوصل الى معرفة جموعها مهما قل عددها ، عن طريق القياس ، فلا بد من تعلم كل واجد منها بالسماع . اما حالات جمع الجمع فنعفيك من سردها وحسبنا وحسبك منها قولهم : « ليس فى كلامهم جمعٌ جُمِعَ ستَّ مرات الا الجمل فانهم جمعوه : اجمالا ، ثم اجمالا ، ثم جاملا ، ثم جمالا ، ثم جمالة ، ثم جمالات . قال تعالى : « جِمَالَةٌ صُفْرٌ » فجمالات جمع جمع جمع جمع الجمع » ! *

ثم يأتيك العدد والمعدود فيبطشان ما شاء لهما البطش بقواعد اللغة افرادا وجمعا ، وجرا على الاضافة آناً ونصبا على التمييز أوانا ، وتغيير حركة آخر المعدود حسب موقعه من الاعراب طورا وبناءه على النصب لغير سبب مفهوم طورا آخر ، وتأنيثاً مع مذكر وتذكيرا مع مؤنث فى حالات دون حالات .

وما ذكرنا من مشاكل هذه العربية وتعقيداتها غير القليل جدا من الكثير جدا ، وما على من يريد ان يتفهم الحال على شىء من حقيقتها الا أن يتورط فى قراءة ايٍّ شاء من تلك المؤلفات العديدة الموسعة فى قواعد اللغة صرفا ونحوا وتخريجا .

فمن جراء هذا كثرت المشاحنات والخصومات بين جهابذة العلماء انفسهم فى العبارة ما معناها ، واللفظة ما معناها او ما موقعها من الاعراب — يجهّل (بالتشديد) بعضهم بعضا ويسبّه ويشنّع عليه .

انى لأشعر بالعطف على كل اجنبى يتعلم هذه اللغة ، بل انى ليأخذنى العجب من نفسى احيانا كيف تعلمت بعض قواعدها المعقدة كحالات العدد والمعدود، والتمييز بين طائفتَيْ (بَقِيَ يبقى بَقُوا يَبقَوْن .. ومَشَى يَمْشِي مَشَوْا يَمشُون) اللتين لم يعد يفرّق بينهما الا الاغلون .. المتنطّسون .

وما لنا نرثى للاجانب ، وها هم تلاميذنا اولادنا المساكين يعانون من تعلمها رَهَقاً ما بعده رهق ، ويرسب بعضهم العام او العامين فى فصله من اجلها ! حتى غدت عند الاكثرين منهم اشق مواد الدراسة والعنها .

ما اقول كل هذا — ويمكن ان يقال اكثر منه — لاندد بلغتى التى اتعشقها ولا اعدل بها لغة فى التاريخ — ولا فى الجغرافيا — لكن هذه المصاعب فى تعلمها فى هذا العصر الذي تتعدد فيه مواد الدرس ، والكثير منها علمى تطبيقى مما يفتقر اليه كل بلد متحضر او سائر فى سياق التحضر — هذه المصاعب اللغوية — بل المصائب اللغوية — قد اضعفت تعلم العربية فزادت اغلاط الكتّاب والمترجمين الى درجة خطيرة حقا وركّت اساليبهم حتى اصبحت الاخطاء والركة تراثا للجيل الجديد واصبحت اللغة تزداد ضعفا وانحلالا يوما بعد يوم .

هذه المشاق والتعقيدات لم يكن يحس بها العربى الجاهلى لانه يرضع اللغة مع الحليب ونادرا ما كان يلحن . والعربى الاسلامى كان يرضعها مع الحليب ايضا لان لغة الكلام كانت ما تزال الفصحى ،

* المزهر 2 / 89 .

وكان يدرسها فى نفس الوقت ويجد فى درسها متعة ومباهاة . امـــا اليوم وقد تغيرت الظروف هذا التغير الهائل فقد اصبح تعلم اللغة على الاسلوب القديم من المستحيلات ـــ الا على ذوى الاختصاص . حتى ذوو الاختصاص وحتى حملة شهادة الدكتـــرة المتخصصون باللغة يرتكبون احيانا من الاخطاء ما ليس مقبولا لو صدر عن تلاميذهم .

وما زالت الاخطاء المشتركة تتزايد والعارفون باللغة يتناقصون . ولسوف ينفرط عقد العربيـــة فى بضعة اجيال حتى تغدو لغة عامية مشتركة بين الاقطار العربية ، بلا حركـــات اعـــراب ولا ضـــوابط . . وتنفصم الصلة بيننا وبين تراثنا المؤثل الباهر ذاك ، فى ميعة نهضتنا ونشوتها .

ربّ يسّـــر

ولو كان تعدد القواعد وتنوعها وكثرة الشواذ مما يعد ثروة لغوية مثل تعدد المترادفات اذن لكانت العربية اثرى اللغات بقواعد النحو والصرف ايضا ، وهى فعلا اغناها بكتبها النحوية واللغوية وتخريجاتها وتأويلاتها ترهـــق الدارســـين ولا تضيف الـــى العلم والمعرفة بشؤون الكون واسرار الحياة ، قتيلا .

عند ما تسلم النحاة هذه اللغة درسوها ومحصوها واخذوا بما اتفقت عليه اكثرية القبائل ، ونفوا ما انفردت به قبيلة او قبائل مما يخالف الاغلبية . نبذوا مثلا لغة « نحن الذون صبّحوا الصباحا » واخذوا باللغة الأروج وهى لغة (الذين) مع ان الاولى اصح فى حالة الرفع ، ونفوا رفع اسم (إنّ) فى لغة « إن هذان لساحران » ، ولغة (استمّرينا) بمعنى (استمررنا) ، وابطلوا عمل (ما) الحجازية . . والغوا نطق بعض الحروف فى بعض اللهجات لندرتها ولانحصارها فى عدد محدود من العرب مثل : الكشكشة والنشنشة والتضجّع والاستنطاء وما الى ذلك * . . بصرف النظر عما اذا كانت حسنة او سيئـــة .

وبالرغم من كل ما حذفوا مما لا يكاد يحصى كثرة ، وجدوا مستثنيات كثيرة تشذ عن القواعد العامة ـــ لكنها مستثنيات مشتركة بين كثير من القبائل فلم يحذفوها بل قعّدوها وفرضوها علينا . حذفوا الكثير وبقى الاكثر ، وما علينا نحن اليوم إلا ان نحذو حذوهم ونكمل ما بدأوا فنلغى الباقى من المستثنيات الزاخرة مراعاة لظـــروف عصرنا وابقاء على كيان اللغة الذى يوشك ان ينهـــار ، واللغة على كل حالة اداتنا ولسنا اداتها .

وتقييس اللغة ليس من اختراعنا فقد كثر القائلون به والداعون اليه ، من الاحدثين ومن الاقدمين الذين قال بعضهم مثلا ان كل اسماء الجمادات يجـــوز فيهـــا التذكير والتأنيث ، واقترح بعضهم تقييس الافعال الثلاثية وتوحيد ابوابها الستة فى باب واحد كفتح يفتح مثـــلا . والذى نقترحه نحن بدلا من ذلك تصنيفها بحسب معانيها للاستفادة منها اولا والتخلص من فوضاهـــا الراهقـــة ثانيا . . بالاضافة الى ضرورة تقييس مصادرها بـــدلا من تركها من غير ضابط ، على السماع . والسماع على كل حال لم ينقل الينا من اللغة الا الجزء الاتل .

حتى لو لم يكن القدامى قد قالوا من ذلك شيئا فواجبنا نحن اليوم تجاه لغتنا وتجاه انفسنا ان نقـــوله ونقول معه كل ما نـــراه صوابا .

ولا مفر من التنازل عن بعض الاجزاء ، والا خسرنا الكل خسرانا مبينا . وان مع العسر يسرا .

ومتى تم لنا اصلاح لغتنا العظيمة وسهلنا تعلمها تمت لنا مزاياها وساغ تعلمها على ابنائها وعلى الاجانب الذين سيقبلون عليها ايما اقبال ولا شك ، وخاصـــة يوم ياخذ اهلها العرب مكانهم الدولى والحضارى فى الطليعة مع الشعوب التى تقود الرقـــى البشرى علما وتقنا وانسانية وسلاما . . فتكون لغتهم بالاضافة الى مزاياها الاخرى ، التى سنتحدث عنها وشيكا ، اكمل اللغات بحق واوفاها بحاجات العصر . بل ان بعض الشعوب المسلمة سوف تتبناها بدلا من لغاتها الحاضرة ولا سيما اذا كانت لغاتها هذه ليست بالقومية الاصيلة . وفى باكستان مثلا حركة كبيرة تدعو الى تبنى العربية فيحتج عليها المعارضون بصعوبتها . والكثيرون من طلاب اللغات فى الجامعات العالمية يودون تعلم العربية ذات المجد والتاريخ قديمـــا وذات الاهميـــة السياسيـــة والاقتصادية حاضرا ، لكن ما يسمعونه عن هذه الصعوبة الشاذة يصرف الاكثرين منهم الى تعلم لغات اخرى .

لا ندرى بعد كل هذا ـــ ايها العزيز القارىء ـــ ما رايك فى اى الابوين اشد حبا لولده المريض . . ذاك

---

* للمزيد يراجع : احمد تيمور باشا ـــ كراس « لهجات العرب » .